العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
معهد تراث الأنبياء عليهم السلام للدراسات الحوزوية الالكترونية
سلسلة إصدارات مدونة الكفيل
١

خواطر قلم

حنان الزيرجاوي

خواطر قلم

حنان الزيرجاوي

إصدار:

معهد تراث الأنبياء عليهم السلام

للدراسات الحوزوية الإلكترونية

التابع للعتبة العباسية المقدسة

الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ

رقم الإصدار: ١٨

العدد: ١٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة للمعهد

مقدمة المعهد

معهد تراث الأنبياء، مؤسَّسة علمية حوزوية تُدِّرس المناهج الدِّينية المعَدَّة لطُلّاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

الدراسة فيه عن طريق الانترنت وليست مباشرة.

يساهم المعهد في نشر وترويج المعارف الإسلاميَّة وعلوم آل البيت عليهم السلام ووصولها إلىٰ أوسع شريحة ممكنة من المجتمع، وذلك من خلال توفير المواقع والتطبيقات الإلكترونية التي يقوم بإنتاجها كادر متخصِّص من المبرمجين والمصمِّمين في مجال برمجة وتصميم المواقع الإلكترونية والتطبيقات علىٰ أجهزة الحاسوب والهواتف الذكيَّة.

وبالنظر للحاجة الفعلية في مجال التبليغ الإسلامي النسوي فقد أخذ المعهد علىٰ عاتقه تأسيس جامعة متخصِّصة في هذا المجال، فتمَّ إنشاء جامعة أُمِّ البنين عليها السلام الإلكترونية لتلبية حاجة المجتمع وملء الفراغ في الساحة الإسلاميَّة لإعداد مبلِّغات رساليّات قادرات علىٰ إيصال الخطاب الإسلامي بطريقة علمية بعيدة عن الارتجال في العمل التبليغي.

علىٰ أنَّ المعهد لم يُهمِل الجانب الإعلامي، فبادر إلىٰ إنشاء مركز القمر للإعلام الرقمي، الذي يعمل علىٰ تقوية المحتوىٰ الإيجابي علىٰ شبكة الانترنت ووسائل الإعلام الاجتماعي، حيث يكون هذا المحتوى موجَّهاً لإيصال فكر أهل البيت عليهم السلام وتوجيهات المرجعية الدِّينية العليا إلىٰ نطاق واسع من الشرائح المجتمعية المختلفة وبأحدث تقنيات الإنتاج الرقمي وبأساليب خطابية تناسب المتلقّي العصري.

وأحد فروع المعهد هي مدونة الكفيل، التي تهتم بنشر النتاجات الأدبية والعلمية للأقلام اليافعة والهادفة، ضمن المواضيع الإسلامية والعلمية والتربوية والاجتماعية والأدبية وكل ما من شأنه أن يساهم في زيادة الوعي الإيجابي في المجتمع.

هذا الكتاب، هو مجموعة قصصية مما نُشر على موقع المدونة على الإنترنت، ارتأينا أن نجمعها في كتاب واحد لمؤلفتها (حنان الزيرجاوي)، وهو باكورة ما يُنشر من مقالات المدونة، وستتبعها العديد من الإصدارات في هذا الشأن إن شاء الله تعالىٰ.

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعل عملنا في عينه، وأن يتقبَّله بقبوله الحسن، إنَّه سميع مجيب.

إدارة المعهد

الإهداء

إلىٰ من غيبته برهان علىٰ عظمة الرب..
ووجوده أمان لأهل الأرض..
وظهوره راحة المتعبين..
إلىٰ الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه..
وإلىٰ والدَيَّ..
إلىٰ أساتذتي، إلىٰ أحبائي..
إلىٰ كل من أُكنّ له احترامي ويشاركني عالمي، أُهدي أحرفي المتواضعة، متمنّيةً أن تترك أثراً جميلاً في نفوسكم.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بفضله قد وهبنا العلم وجعله نوراً ونبراساً نهتدي به، نحمده بالحمد الذي ارتضاه لنفسه ونسأله التوفيق لشكر نعمائه أفضل وذكر آلائه في كل وقت وحين، وصلىٰ الله علىٰ خير خلقه الذي أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله وعلىٰ أهل بيته الطيبين الطاهرين أعلام الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ.

أمّا بعد..

أن عالمنا يضُجُّ بخواطر منها ما نبوح به، ومنها ما يسكنُ حنايا القلب، وعندما يخرج إلىٰ الضّوء يخرج علىٰ شكل كلماتٍ يخطُّها قلم، فيُخلّدها، وتكونُ حديث القلب للقلب، ليعبُر منها نورٌ يخرق كلّ حاجز، ربّما يؤثّر، ربما يُغيّر، وربما ينشر عبقاً جميلاً يفوح شذاه بين الأقطار.. هذا من جهة.

ومـن جهـة أخـرىٰ فـإن القريحـة الأدبيـة مسـؤولةٌ عـن صـياغةِ الأخـلاقِ في قصـةٍ تسـحرُ الألبـاب وتتعمّـقُ في الأذهـان والنفـوس والقلوب.

خـواطر جالـت وجالـت ثـم هـدأت لتتسـرب إلىٰ قلـمٍ ليرسـم خلجات وهواجس ونفثات!

هـي واقـع تـارةً وخيـال تـارةً أخـرىٰ، فيرسـم بهـا صـوراً نألفهـا مرة وننفر منهـا أحيانـاً لتعارضـها مـع أهـواء الـنفس فيوبخنـا العقـل ويسوقنا إلىٰ الهدىٰ.

لكـي تبقـىٰ خواطرنـا مقيـدةً لعلهـا تجـد منفـذا إلىٰ عـالم الوجـود لتسبح في فضـائه الواسـع بأجنحـة مـن التفـاؤل لتنشـر عطـر المحبـة والوفاء.

تأملات فتاة

في جوف الليل بعد أن هدأت الأنفاس وعاد الجميع إلىٰ مستقره.. ليستشعر دفء الأمان، وبعد أن هدأت الأصوات وآوت العصافير إلىٰ أعشاشها، وهرب كل حبيب إلىٰ حبيبه، في ساعة يخلو الإنسان مع ربه، لينظر كم هي نعم الله اللامتناهية، قد أغدقت عليه وبين هذا وذاك، وبين نسمة هواء تدخل البهجة للنفس، ينسل زائر غريب إلىٰ داخل هذي النفس الحائرة، هو معها ولكن يبدو غريباً عنها، هو يرافقها وينأىٰ عنها إن رأىٰ أنها لا تخاطبه، ولكنه يبقىٰ يحوم حولها، فإذا سبحت في لجج الدنيا، وتقاذفتها الأمواج العاتية ويجرفها التيار بعيداً، فيوسوس لها إنه طوق نجاة سيحملها للشاطئ، فتضعف في محنتها أمام إصراره وحيله.. لتظنه هو المنقذ والمخلص، فيسلك بها نحو أغوار اللامعقول.. ليوصلها إلىٰ متاهات التيه والضياع، يُجمّل لها الدنيا، ويزخرف في عينيها مباهجها.

نعم، في تلك اللحظات تخذلني نفسي مع ذلك الذي لا يكل ولا يمل في سعيه، لأتساءل:

من أنا؟ ماذا حققت؟!

أتراني فعلاً أعيش في هذه الدنيا؟ أم لي ركني النائي.. البعيد؟

ترىٰ هل يشعر من حولي بوجودي؟

أفعلاً أنا أعيش وسط هذا العالم الذي يأخذ كل شيء مني ولا يعطيني أي شيء؟

لا أدري لِمَ صرت غريبة عني هكذا؟

تأخذ الأسئلة تنهش بي من كل جانب، حتّىٰ خُيّل إليَّ أنّي بالفعل وسط بحر متلاطم الأمواج، كل موجة تحمل معها ألف سؤال وسؤال، وهو يخاطبني ويحفزّني ويجمّل لي صورة اللامعقول.

ويرسم أمامي لوحة البهجة الكاذبة، بزخارفها الخداعة، حتّىٰ كدت أُرافقه أوهمني فخيّل لي أنه منقذي، ومددت يدي ليصطحبني لعالمه البراق، كما زينه لي بكلمات معسولة ولكن تحت سطحها يكمن السم القاتل، ليجعلني لا أرىٰ إلّا عالمه، ولا أنظر إلّا بعيونه هو لا بعيوني أنا، وهممت بالنهوض معه، وأنا فرحة أكاد أحلق في سماء البهجة والسرور، ولمّا همْتُ باتخاذه دليلاً في سفري نحو المجهول.. وإذا بصوت يأتي إلىٰ مسامعي يهتف بي:

رويداً.. رويداً أيتها الفتاة، أهكذا ينسىٰ الإنسان حبيبه؟ أهكذا يخذل العاشق معشوقه؟ أهكذا يترك الرفيق رفيقه؟!

فأُصبتُ بقشعريرة في بدني، وسرىٰ ارتجاف في مفاصل جسمي، ودقات قلب كادت تُخرج صاحبها من قفصه الصدري، وخاطبت نفسي:

ماذا تريدين أن تفعلي؟ أهكذا جزاء من أراد بك خيراً وروضّك؟ مهلاً أيتها النفس الأمارة بالسوء، عودي إلىٰ رشدك، واعلمي أن عطاء الله ليس له حدود.

فاقنعي بما قسم لك، ولا تخسري الدنيا والآخرة.

وغفوت فرحة في حضن الأمان.

صحوة ضمير

كانت تقوم بأعمالها المعتادة وهي تجهد نفسها بإعداد الطعام، إلّا إنها مهما تفننت بإعداده فلابد أن تواجه التقريع وعدم الرضا، والتأفف.

مع ذلك اجتهدت وأجهدت نفسها لأنها تعلم أن زوجها قد قرب موعد حضوره إلىٰ المنزل من عمله.

وهي في حركة دائبة وإذا بها تسمع صوت جرس الباب يرن ولكن بشدة ويتواصل بغير انقطاع مما ينذر بوجود حالة غير طبيعية أو أمر جلل قد حصل.

أسرعت بوجل وخوف نحو الباب وكاد قلبها أن يقفز أمامها وبدت هذه الأمتار القليلة التي تفصلها عن الباب وكأنها مسافات شاسعة.

فتحت الباب بدون أن تسأل من الطارق؟ كعادتها في كل مرة، وإذا تُفاجأ بزوجها وهو مكفهر الوجه مقطب الحاجبين وصوته يعربد.

أين كنت أيتها الحمقاء؟!

تراجعت قليلاً إلىٰ الوراء ووضعت يدها علىٰ قلبها وتنفست نفساً عميقاً... وقالت له: خيراً إن شاء الله...

ماذا حدث؟

قال مستهزئاً: لم يحدث شيء!

ولكن ألم يكن معك مفاتيح الباب؟

رد منزعجاً: لقد نسيتها بعد أن استيقظت متأخراً وأنتِ لم تذكريني وهكذا أنتِ دائماً.

هدأت قليلاً بعد أن التقطت أنفاسها، ثم دخلت المطبخ لتهيئة الطعام وسط سكون تام يعمّ المنزل، إذ لم يكن لهما إلّا ولد واحد وهو متزوج ويعمل في غير مكان ومعه زوجته.

بعد تناوله للطعام وبشراهة غير آبه لما أصابَها تصرفه من الذعر والخوف.

التفت إليها: سأدخل لأنام قليلاً لا أريد أي مصدر إزعاج.

دخل إلىٰ غرفته ونام وفي لحظة استيقاظ للضمير أو لنقل في لحظة عطف من رب الرحمة لعباده ليجازيهم علىٰ بعض أفعال الخير لأنه مع سوء سلوكه مع زوجته إلّا أنه عُرف عنه بره بأبويه في حياتهما، نعم في لحظة لطف ورحمة وفي عالم الرؤيا رأىٰ كأنه مات وانتقل إلىٰ العالم الآخر.

وكان يرىٰ نفسه قد ودّعه أهل الدنيا ووضعوه في قبره، فبدأ القبر يضيق شيئاً فشيئاً وهو يصرخ: لماذا كل هذا الضيق؟

فأتاه نداء: لأنك كنت سيء الخلق مع عيالك!

وهو في ذلك الضيق وإذا بـه يـرىٰ أفعـىٰ ضـخمة تـدنو منـه تريـد النيـل منـه وهـو يصـرخ ولكـن لا أحـد يسـتمع أو يسـمع صراخـه وهو ينادي: ما هذا؟ ما هذا؟

أتـاه نـداء: هـذه ابنـة جـارك التـي أسـأت إليهـا كلـما جـاء إليهـا خاطـب واستشـارك وسـألك عنهـا كنـت تشـوه سـمعتها وتـذكر خصالاً سيئات ليست فيها.

نعم كنت أكره جاري ولا أريد أن يفرح بابنته.

إذن نل جزاء ما جنيت.

مهلاً... مهلاً...

ما تريد هـل يمكنهـا أن تسـاعدني فهـي طيبـة وذات خلـق حسـن مع الجميع.

نعم يمكنها إن أسقطت حقها عنك.

سنأتي بها.

وأحضـروها أمامـه، بـدأ يـذرف الـدموع بنحيـب عـال وهـو يتوسل بها أن تعفو عنه بعد أن أخبرها بكل شيء.

أطرقت قليلاً.. وقالت:

أعفو عنك بشرط.

نعم.

أن تعاهدني علىٰ أن تترك الكلام عن الناس وتحسن خلقك مع أهلك.

نعم... نعم، سأفعل.

وأن تقرأ القرآن كل يوم، وعفوي عنك معلق علىٰ أن تفعل هذه الأشياء.

نعم سأفعل أعاهدك أمام الله سأفعل.

غابت عن ناظريه ولكن تلك الأفعىٰ بقيت بالقرب منه.

وإذا بزوجته تسمع صوت زوجها ينادي بأعلىٰ صوته.

ابعدوها عني... ابعدوها عني وهو يضرب السرير برجليه بقوة.

حضرت عنده أحضرت له الماء أيقظته وإذا به يتصبب عرقاً وكاد نفسه أن ينقطع.

ما بك أيها الرجل؟

لا عليك إنه حلم.

قام فاغتسل وأمسك القرآن وتوجه بنية صادقة وإذا به يقع بصره علىٰ آية ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) نادىٰ علىٰ زوجته واعتذر إليها.

ثم عاد إلىٰ قراءة القرآن فقرأ سورة لقمان فأيقن أنه لم يكن في هذا العالم توجه إلىٰ الله تعالىٰ ولن يغفر له إلّا بعد أن أعلن توبته.

زمن الضياع

عادت إلىٰ البيت وبدا علىٰ محياها حزن مصحوب بنفثات حارقة، اغرورقت عيناها بالدموع، ذهبت مسرعة نحو غرفتها بسرعة غير معهودة، ألقت بنفسها علىٰ سريرها أطالت النظر في مرآة صغيرة تحملها بيديها المرتجفتين، وتتمتم بكلمات قد لا يفهم منها شيء، بينما هي كذلك، إذا بصوت عذب يخترق جدار صمتها، لطالما شنف أسماعها[1] بلطيف كلامه، دغدغ احاسيسها بدفئه، أدخل الأمان عليها برقيق همساته، إنه صوت أم قد اعتادت أن ترىٰ جميلتها تملأ البيت مرحاً وصخباً محبباً عند عودتها من المدرسة.

نظرت إليها في حالة دهشة وذهول، قبل أن تبادر أمها بالسؤال، انفجرت بوجهها باكية، تشابك دموعها كلماتها، يبعثر هذه الكلمات نشيج يكاد يطغىٰ علىٰ بعض الحروف التي تخرج

---

(١) يقال شنَّف الآذان بكلامه: أمتعها به.

كالشـــرر مــن فوهــة بركــان ملتهــب، أسرعــت إليهــا أمهــا لكــي تحتضــنها، تهــدّئ مــن ثورتهــا، تنصــت لكلماتهــا، لكنهــا أحســت أن المسافة بين الباب وابنتها بعيدة، فبادرت بهذا السؤال:

يا حبيبة أمك، أقسمت عليك برب العباد أجيبي علىٰ سؤالي!

كيف تقولين هكذا؟!

أنت تعلمين أنك اتخذت الصالحات قدوة لك؟

ماما رأسي يكاد ينفجر رأيت عجباً.

ماذا رأيت؟

قالــت: رأيــت حــولي مــن البنــات كثــيراً مــنهن انشــغلن بالــدنيا، بلغت بهن الجرأة علىٰ تعنيفي لأنني أرتدي العباءة.

ما هذا؟!

كأنــكِ تعيشــين في العصــور الوســطىٰ! أظهــري مفاتنــكِ! تبرجي!

هذا زمن الانفتاح زمن الحرية.

أُمّاه هكذا تكون الحرية؟!

أهكذا نعصي الله! لنرضي أهواءنا..

إنه زمن الضياع فعلاً..

أجابتها الأُم: علىٰ مهلك يا ابنتي، اذكري الله، صلّي علىٰ نبي الرحمة، أنت اتخذت النساء الصالحات قدوة لكِ، كل من تقول لكِ عكس ذلك قولي لها: هل مررت يوماً في سوق، ورأيت بائع حلوىٰ؟

إذا كانت الحلوىٰ مكشوفة، سترين الذباب والحشرات تتصارع عليها.

وإن كانت الحلوىٰ محفوظة تحت غطاء فلن يصل إليها سوء.

هل رأيت يوماً أحداً من الناس رمىٰ نقوده أو ذهبه أمام أعين الآخرين؟

بل إنه يحرص أن يخفي ما عزّ عنده...

كذلك هي المرأة، إن كانت صالحة فيجب أن تخفي جسدها عن أعين الوحوش التي تفترسها، إن وجدت أمامها جسداً عارياً أو برزت مفاتنه، فانظري إلىٰ الغرب كيف جعل من جسد المرأة أبخس سلعة لديهم.

لا عليكِ يا ابنتي، هنّ الضائعات وأنتِ من فزت برضىٰ ربك يا عزيزتي.

أحلام السعادة

كانت مستغرقة في أفكارها بعد أن أوصدت باب غرفتها وأغرق خديها ذلك الدمع المتدفق بحرارته اللاهبة من عينين ناعستين، بينما كانت علىٰ هذا الحال، إذ أيقظها صوت التلفاز ونبرة ذلك الشيخ الوقور، الذي طالما أجهد نفسه في نصح من يسمع النصح، وصورته قد ملأت الشاشة وهو يتكلم عن السعادة!

وكيف يكون الإنسان سعيداً؟

ولا يتعلق بهذه الدنيا الفانية؟

وكيف ينشر السعادة بين الآخرين؟

فأطرقت هنيئة وهي تفتخر بنفسها، لأنها كانت تحب أن ترىٰ الجميع تملؤهم وتغمرهم السعادة، وتسعىٰ دائماً لإسعادهم وهي مملوءة ألماً وحزناً، تضحّي بكل شيء لأجل الآخرين، ولا أحد يهتم لأمرها فأيقنت بطيب قلبها الذي أحبته أن السعادة هي المعنىٰ والهدف الأساسي للحياة، وأنها إنما تتحقق بالعطاء.

آهات محبوسة

انـزوت سريعـاً تحـت دثارهـا بعـد أن تركـت الآخـرين يدنـدنون ويتشاجرون ويتخاصـمون، كـلٌ يبغـي الغلبـة لرأيـه ليشـعر بانتصـار الـذات وحـلاوة الفـوز فانسـلّتْ مـن وسـط هـذا الضـجيج المتعـال، لأنهـا أحسّـت بغربتهـا وسـط هـذا الهـدير مـن الكلـمات الصـاخبة الملعونة التي أصمّت أذنيها.

وحملتهـا خطواتهـا إلىٰ ملاذهـا الأمـين، وحجرهـا الـدافئ الـذي تشعر بالراحـة معـه إلىٰ حيـث سريرهـا المتهالـك لقدمـه وهـو يشـكو عبـث الأيـام بـه، فهـو رغـم أنـه يـوفر الأمـان لمريديـه لكنـه يشـعر بالغربةِ وسط هذا الأثـاث الـذي يحـيط بـه فأصـدقاؤه الـذين عـرفهم واعتاد عليهم غـادروا ذلـك المكـان ليبقـىٰ وحيـداً وسـط اللامـألوف لديه.

نعـم، ارتقـت عـلىٰ رفيـق عمرهـا الـذي أَلِفَهـا وأَلِفتـه وانسـابت بهدوء تحت دثارهـا حتّـىٰ لا توقظـه أو يعكـر صـفو وحـدتها، ولكـن

ما لبثت أن بدأت بآهاتها تحرق من يقرب من فيها الذي حاولت أن تجعله لا ينفتح، ولكن ضيق الهواء الذي كان يدخل من أنفها أجبرها أن تفتح فاها لتبدأ الآهات تحرق من يقابلها، حتّىٰ من كان لها دثاراً، آهات لا تنتهي لأنها لم تبدأ، آهات لا تُسمع لأنها خرساء صامتة.

وبعد برهة من الوقت انتبهت كأن أحداً أيقظها بقوة وقسوة، فنظرت إلىٰ الأعلىٰ وتذكرت أن الغفلة عن قضاء الله وقدره ذنب، وأن الغفلة عن ذكر الله ذنب، فاستغفرت وأنابت إلىٰ من لا ينسىٰ عبيده فحمدت الله وشكرته وقامت لوردها.

انكسار قلم

رأيته يكتب بانكسار، وكأنه ينثر دموعاً تتلألأ على السطور، وليست حروفاً.

وقف محتاراً ماذا يكتب بانكسار قلب بين أناملي وكان يرجع عليه صدىٰ صوته ليقول لي:

ماذا أكتب لك؟ فقد عجزت الحروف عن وصف ما بك!

أكتب يا صديقي ورفيق دربي، سأخبرك بما يدور في مخيّلتي وأنا أرىٰ من حولي من الفتيات والنساء يداعبْن أحلامهن ويتراقصْنَ مع أفكارهن، ليلدْن واقعاً جميلاً.

ويرجع إليَّ صدىٰ الصوت يخاطبني: أفيقي، لا تتخيلي وتسرحي، فأنتِ لستِ منهن، ولا تذهبي بعيداً ربما ستضلّين طريق العودة.

فانتبهت ووقفت لأرىٰ نفسي أمام المرآة وأحدّق بملامحي التي بدأ عليها الشحوب، وبات في عيني الخمول، وأُدمدم مع نفسي لأسألها:

هل هذه أنا حقاً؟!

فردّ عليَّ قلمي يقول لي:

أما تكتفين وترتوين من دموعي؟ فقد كسرتِ قلبي، وجف حبري، وأعلنت انكساري وعجزي عن كتابة ما أنتِ فيه.

ولا يسعني يا صديقتي إلّا أن أقول لك: أما تعلمين أن الصبر مفتاح الفرج؟ فتحلي بالصبر ولا تقنطي من رحمة الله إن كنت كما أعرفك مؤمنة بالله، فالمؤمن لا ييأس من روح الله، ولا يقطع رجاءه من الأمل بالله، ويعلم أن كل ما يعاني منه فهو في عين الله، يراه ويسمعه فسلّمي أمرك لله، يا عزيزتي فالفرج قريب.

ألم الماضي

جمع مدير المدرسة التلاميذ المتفوقين وبدأ يتحدث معهم عن أهمية العلم والتعلم وما للعلم من فضل عند الله تعالىٰ.

ويخبرهم أنه سيتم تكريمهم، وطلب منهم أن يخبر كل تلميذ والده لحضور حفل التكريم، إلّا واحداً منهم أخذه وسار معه في ممر المدرسة وقال له: بني هلم معي. وبدأ يضع يده علىٰ رأسه وقال له: بني أمّا أنت يا عزيزي فكلنا آباؤك.

أنت ابن العزيز الغيور..

أنت ابن البطل..

بقيت هذه الكلمات تطرق أسماع ذلك الطفل، وهو يقارنها بكلام أُمّه الذي طالما سألها عن أبيه فترد عليه: أنه في سفر يا بني، وهو يرعانا من بعيد، ويتفقد أحوالنا ويغدق علينا بحنانه!

بدأ يقارن هذه بتلك، وما إن خرج من المدرسة حتّىٰ عاد مسرعاً إلىٰ البيت، ورمىٰ حقيبته، ولم يضعها في مكانها ككل يوم، وتوجه مسرعاً نحو أُمّه مطأطأً رأسه، لأنه اعتاد أن لا يرفع بصره في وجه أُمّه:

أُمّاه أين أبي؟ أما آن لأبي أن يرجع من سفره ليرىٰ تفوق ولده؟

كم أحببت أن أراه وهو يرفع رأسه بين الآخرين فرحاً بتفوقي ويتباهىٰ بي أمام الآخرين!

أُمّي، لقد علّمْتِنِي علىٰ الصدق وقلتِ لي: (النجاة في الصدق).

أرجوك يا أُمّي، أرجوك يا حبيبتي، أخبريني أين سافر؟ ولمَ هذا السفر الطويل؟ فقد اشتقت إلىٰ رؤية وجهه، اشتقت إلىٰ أن أرتمي بأحضانه..

اشتقت إلىٰ أن يداعبني، أن أتسلق علىٰ ظهره..

وهو يتكلم بهذه الحرقة وذاك الألم الممزوج بالدموع، انتبه إلىٰ أُمّه فوجدها قد علا نحيبها ونشيجها، وضمته إلىٰ صدرها: كفىٰ، كفىٰ بني..

سأخبرك عن سفر أبيك... لأنك أصبحت رجلاً، ويجب أن تكون فخوراً به.

بني، في ليلة شتاء باردة، وبعد منتصف الليل، سمعنا طرقاً شديداً علىٰ باب دارنا، فهمّ أبوك بالخروج لكي يرىٰ من علىٰ الباب..

ولكن لم يمهلنا الطارقون فقد دخلوا دارنا بعد أن فتحوا الأبواب عنوة، وهم مدججون بالسلاح، دون أن يدعونا نرتدي الحجاب أو ننزوي جانباً..

واقتادوا أباك في تلك الليلة ولا نعرف إلىٰ أين أخذوه، وبعد سنوات من الألم والبحث والضياع، أُخبرنا بأنه استشهد علىٰ أيدي تلك الزمرة العفنة من أزلام البعث.

كان الطفل يستمع لحديث أُمّه مندهشاً وقد اختنق بدموعه، بالكاد يتلاقف أنفاسه..

أُمّي ماذا تقولين؟ أرجوك أكلُّ هذا حدث؟!

نعم يا بني...

إذن لماذا لا نزور قبر أبي كما يفعل الآخرون؟

بني لا يوجد قبر لأبيك، فلم نستلم جثته، وبحثنا كثيراً فلم نعثر علىٰ أي شيء.

إذن يا أُمّي أعطني صورة أبي لأضعها علىٰ الكرسي المخصص لأولياء الأمور لكي ينظر إليَّ وهو يراني متفوقاً، لأني سأشعر بأنه يراني، ويفتخر بي أمام أصدقائه، ولأفتخر به أمام الجميع.

إنه: أبي، أبي.

ما هي أمنيتك لهذا العام؟

سألوني: ماذا تتمنين في العام المقبل؟

ما هي أمنيتك يا نور لهذا العام؟

هكذا سألت رقية صديقتها في المدرسة.

نور: ماذا عساني يا عزيزتي أن أتمنىٰ فهي أمنيتي تتجدد كل عام.

رقية: لماذا أمنية واحدة نفسها يا حبيبتي، أليس الكل يحتفل في يوم رأس السنة ويعلقون أمنياتهم لتتحقق؟

نور: ومن يحققها بنظرك؟

رقية: أغير الله يحقق ما نتمنىٰ؟!

نور: أتعتقدين بما يعتقد به المحتفلون الذين جهلوا عقيدتهم واتبعوا أهواءهم؟!

رقية: هي لحظات يا حبيبتي نرفّه بها عن أنفسنا ونكسر الروتين اليومي بالاحتفال والبهجة والمرح مع الأهل والأصدقاء، ماذا دهاكِ يا نور لا تكوني معقدة جداً.

نـور: لسـتُ معقـدة يـا رقيـة، ولكـن أنشـدتك الله أن تـدركي مـا أوضحه لك.

رقية: تفضلي كلي آذان صاغية لك.

نـور: كـل المجتمعـات اليـوم تفتخـر وتبـتهج بـالموروث الـذي ترثـه مـن عـادات وتخليـد الشخصـيات وذكـر السـير التـي سـارت عليها تلك الشخصيات، ونـرىٰ هـذه الأيـام أن العـالم يحتفـل بـولادة السيد المسيح عليه السلام ونحن كمسـلمين نقـدس هـذا النبـي العظـيم فهـو أحـد أنبيـاء الله ومـن أولي العـزم، وبهـذه المناسـبة نشـارك باسـتذكار ولادة هـذا النبـي الـذي يعتـبر معجـزة مـن معجـزات الـربّ تبـارك وتعالىٰ.

رقيـة: هـا أنـتِ تتـوافقين بـالرأي معـي، وأنـه يجـب أن نحتفـل ونشارك... الحمد لله.

نور: لا... لا، تمهلي قليلاً حتّىٰ أكمل لك... لا تتسرعي.

رقية: تفضلي يا نور أكملي.

نـور: لنـتكلم قلـيلاً عـن صـورة الاحتفـال بهـذا المولـود وخصوصاً في العراق.

أسـألك يـا رقيـة، ألـيس السـيد المسـيح مبعوثـاً مـن قبـل الله سبحانه وتعالىٰ وبشريعة وكتاب اسمه الإنجيل، نعم أم لا؟

أكيـد الجـواب: نعـم، وبـما أن الإجابـة (نعـم) فـأقول لـك: هـل من المعقول أن يأتي هذا النبي بشيء مخالف للعقل والوجدان؟!

حقيقة (كلا) بكل تأكيد، لأنه نبي مبعوث من قبل الحكيم الخبير، والحكيم منزه عن اللهو والعبث، فعلىٰ هذا، فإن من أراد السير وفق نهج هذا النبي ﷺ فلابد عقلاً أن ينتهج سيرته بدون أي انحراف، وبخلافه تكون الأمور معكوسة، أي من عمل أي عمل سواء عبر القول أو الفعل مخالف لمنهجه فليس من اتباعه والمؤمنين به، بل هو من أعدائه، لما في هذا الفعل من تشويه لمسيرته الإلهية.

وبعد كل ذلك يا رقية سؤالي لكل مسلم: لماذا نحن نعمل خلاف كل المعايير الإسلامية والإنسانية؟ فبدلاً من أن نستذكر هذه الولادة بالعبرة والدروس، صار البعض يتجاهر بالفسق من خلال إقامة حفلات الغناء واختلاط الجنسين في تلك الأماكن، وغيرها من الأمور التي تخالف المعايير الإنسانية.

ليس هذا فقط، فبدلاً من أن نجعل الأموال التي تصرف علىٰ تلك الحفلات والألعاب النارية مورداً لإعانة الفقراء والمساكين وأبناء الشهداء، قام البعض بالرقص علىٰ جراح الشهداء، وصدق من قال: إن الأُمّة التي لا تستذكر شهداءها أُمّة لا تستحق العيش!

أخذت نور نفساً عميقاً وقالت: آه.. آه، تمنيت أن تفتحوا قلبي وتروا الـ(آه) التي تَسكن صدري منذ سنين، منذ أن غاب

عنا النور وأمسينا في دياجي المحن، تُرىٰ متىٰ ستشفىٰ الجراح وتطيب الآهات بطلعتك، بدعائك، بنظرة منك، نعم، نظرة منك.. يتغير كل شيء وتحلق الروح بحرية من قفص الانتظار القاتل، الانتظار القاسي، الذي سرق منا طعم الفرح.

مولاي أُمنية واحدة لي بهذا العام: وهي أن أحظىٰ بلقائك، وأُقبِّل القدمين قبل أن يسرقني الموت من لقائنا القادم.

فلندعُ كل واحد من مكانه، لنبذ كل ما يخالف أمر الباري ﷻ، أو يؤخر ظهور إمام عصرنا.

كلنا مسؤولون عن ما يجري، الأب في بيته، المسؤول في عمله كل من مكانه وموقعه.

إلىٰ متىٰ ستبقىٰ الأُمَّة بعيدة عن رحمة خالقها، فرحمة الله واسعة ولكن بنفس الوقت هو جل وعلا شديد العقاب.

رقية: شكراً يا نور كنت غافلة.

في طريق التعلم

بعد أن ذهب لزيارة صديقه المريض ولم يثقل عليه الزيارة، حيث لم يطل المكوث عنده، خرج من بيت صديقه القديم الذي تربطه به ذكريات الطفولة والصبا والشباب، ولم يفترقا يوماً؛ لأن صداقتهما بُنيت علىٰ الأخوّة في الله والصدق ومراعاة أحدهما الآخر، بل في بعض الأحيان يلتمس أحدهما للآخر العذر إن حصلت هفوة أو زلل.

وهو يسير في طريقه نظر إلىٰ ساعته القديمة التي يعتز بها كثيراً لما تحمله من ذكرىٰ جميلة في حياته.

نظر إليها فرأىٰ أن وقت الصلاة قد اقترب، لم يبق للقاء الله إلّا عشرون دقيقة، وقد دأب من أول تكليفه الشرعي علىٰ المحافظة علىٰ الصلاة في أول وقتها، لما سمعه من أبيه من الروايات في فضل الصلاة في أول وقتها.

ومن حسن حظه أنه كان المسجد قريباً من بيت صديقه، فدخل إليه وهو يلهج بذكر الله ويسبحه ويحمده.

دخل، وأثناء مسيره لكي يكون في الصفوف الأولىٰ من المصلين الذين لم يتواجد منهم إلّا القليل، أثار انتباهه ثلاثة شبان في مقتبل العمر، وهم يتهامسون فيما بينهم في مسألة ما! فوقف قريباً منهم ليسمع ما يقولون، لعله يسمع ما ينفعه من شباب مؤمنين.

سمع أحدهم يقول للآخر: أنا سمعت ذلك من أبي.

فردّ عليه الآخر: نعم، نعم، اعتقد أن ما قلته هو الصواب.

فيما أبدىٰ الثالث استغرابه وهو يقول لهما: بل نية الوضوء ما ذكرته لكما وقد قرأت ذلك.

فوقف لعله يستطيع أن يحل النزاع بينهم.

التفت إليهم وقال لهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أبنائي.

ردوا جميعاً وبأدب وصوت رفيع: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أتسمحون لي بأن أجلس معكم لعلي أسمع ما ينفعني؟

نهضوا جميعاً وقد علا وجوههم الحياء وقالوا جميعاً: تفضل، تفضل يا عم.

جلس جلسة التلميذ بين أستاذه والتفت إليهم: هيا، هيا أكملوا حديثكم.

فقال أحدهم: عذراً أيها العم العزيز، كيف نتكلم في حضرتك؟

لا عليكم يا أبنائي.

فقال الآخر: بل نحن كلنا آذان صاغية لك.

فبادرهم بالسؤال: ما هو موضع الخلاف بينكم؟

فأجاب أكبرهم: كنا نتباحث في موضوع نية الوضوء.

إذن استمروا.

قالوا: لا، لا. (بصوت واحد)

اسمعوا يا أحبائي، لكي نخرج من كل هذه الإشكالات فقد سمعت من العلماء أن أفضل نية من الناحية العملية للوضوء هي أن أتوضأ لأكون علىٰ الطهارة قربة لله تعالىٰ.

فبهذه النية تستطيع أن تفعل كل ما تشترط فيه الطهارة، وتغنيكم عن تخصيص النية.

شكراً لك أيها العم العزيز.

بل الشكر لكم أحبتي.

إذن هيا بنا لنتنفل إلىٰ الله بركعات، وبورك بكم.

حروف نيرة

أجلَس ولده البكر في حجره وهو يلثم وجنتيه وثغره الذي ما كاد أن تسعه شفتاه رغم صغر طفله، لكن ابتسامته كانت عريضة ملأت وجهه.

نعم كان يشعره بالحنان والطفل تعلق برقبة أبيه يدغدغه والأب يسقط يميناً وشمالاً يلوذ بالهواء لعله يجد ما يستتر به من همسات طفله، وكان فرحاً لهذه اللحظات.

ثم التفت إلىٰ من شاركته هذه اللحظات وإن كان في نفسها بعض الغيرة من طفلها! وهي ترىٰ أنه استولىٰ علىٰ أحد ممتلكاتها بشكل كامل!

نعم التفت إليها مخاطباً إياها: عزيزتي، ولدنا سيدخل المدرسة هذه السنة فعلينا أن نشتري له أجمل الملابس وحقيبة جميلة.

فبادرته بابتسامة الفرح مع نشوة من الزهو وأومأت برأسها مبدية الإعجاب والموافقة.

وانسلّ عنها منزوياً بغرفته وأخرج ورقة وقلماً وبدأ ينثر حروفه، وقبل أن يبدأ مداده بخط تلك الحروف خرج وقال لها: سأكتب بعض الكلمات وأدعها في ذلك الدرج، فإن كنت هنا سآخذه بنفسي إلىٰ المدرسة في اليوم الأول، وإن كنت غائباً عنك في ذلك الوقت اذهبي به أنتِ ولكن احملي معك هذه الورقة لمدير المدرسة.

نعم يا عزيزي سأفعل.

ولكن هل لي أن أعرف ما في طياتها؟

عندما يقرأها المدير ستعرفين.

قالها وهو مبتسم ودخل غرفته.

بعد دقائق خرج ومازح أهله.

ولما انقضت أيام إجازته ودّعهم وقال لها: سآتي إن شاء الله في موعدي لأصحبه إلىٰ المدرسة.

ومرت الأيام وكانوا بانتظاره، وفي يوم موعد إجازته، سمعت أصوات موسيقىٰ عسكرية حزينة وأصوات رجال يكبرون ويهلّلون فأطلّت من شباكها لترىٰ نعشاً يُحمل علىٰ الأكتاف، وقد لُفّ بالعلم العراقي متجهاً نحو بيتهم، دققت النظر لترىٰ صورة زوجها فوق ذلك النعش! فبدأت رحلتها

الجديدة من تحمّل ألم ومرارة الحياة. ولتكون هي الأُم والأب في آن واحد ولتحقق رغبة زوجها مع ابنهم.

في الموعد المحدّد لبدء العام الدراسي الجديد ألبسته أُمُّه أجمل ثيابه ووضعت صورة أبيه الشهيد علىٰ صدره وحملت الرسالة بعد أن شمتها ورطّبتها بقطرات دموعها.

وصلت إلىٰ المدرسة وسلّمت علىٰ مديرها وقدمت أوراق قبول ولدها، ثم أعطته تلك الرسالة، فتحها وبدأ يقرأ ما سطر بها من حروف، وهو ينظر بين لحظة وأخرىٰ إلىٰ ذلك البرعم الجميل، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، والأُم لم تستطع أن تخفي دموعها رغم ارتدائها النقاب.

فسألته بشغف كبير: ماذا كتب فيها؟

فأجابها مدير المدرسة والعبرة تتكسر في صدره: اسمعي...

الأستاذ الفاضل مدير المدرسة المحترم.

السلام عليكم.

ها أنت تقرأ تلك الحروف التي كنت علىٰ يقين أنك ستقرأها لأني أيقنت السفر إلىٰ الخلد.

عزيزي...

ها قد حان بدء العام الدراسي الجديد وجاء أبناؤنا إلىٰ صفوفهم، وقد اعتاد الآباء أن يصطحبوا أولادهم الجدد إلىٰ

المدرسة، ليكونوا بقربهم، ولكن ولدي شاء الله أن يفقد أباه في مثل هذا اليوم.

لذا أرجو أن تكون له مثل أبيه ولكل طفل يتيم فلا تقهروه...

لقد عرفتك حنوناً عطوفاً وأنا لا أوصيك بذلك ولكن خوف الوالد علىٰ ولده جعلني أكتب هذه الكلمات!

واختنق المدير بعبرته ولم يكمل الرسالة وهو يحتضن الطفل اليتيم.

آهات باكية

استفاقت علىٰ رنين هاتفها، فحاولت أن تبصر لترىٰ من المتصل؟ ولكن رموش عينيها استجمعت كل كسل العالم وأبت الانصياع، حاولت وحاولت وحاولت، لكن دون جدوىٰ.

فتذكّرت أنها آذت تلك الشعيرات المطبقتين علىٰ العينين وأغرقتها ببحر الدموع، وكانت تستغيث وتطلب من ينقذها من الغرق، فأضمرت لنفسها ثأراً..

ونادتها: إن كنت حقاً تمتلكين الذكاء فمن المتصل..

فيا نفس إن كنتِ واثقة من عملك فإنك علمتِ أنه طارق خير، وإن كنتِ قد فعلتِ الذنوب والمعاصي فأنتِ واثقة وخائفة من طارق يطرق بالشر.

ولكن لا تيأس، فما زال أمامك متَّسع من الوقت، فلم يفت الأوان، أفيقي واسلكي خلف ذلك الشعاع الساطع من ذلك الباب المفتوح.

فـالله كتـب عـلىٰ نفسـه الرحمـة وقَبِـلَ بالاسـتغفار والتوبـة، فيـا نفس أسرعـي للتوبـة قبـل أن يطـرق جـرس انتهـاء رحلتـك في هـذا العالم الصغير.

فاسـتفاقت واسـتجمعت أفكارهـا وأخـذت مهرولـة لتنـاجي ربَّها وأحسّت بذلك الاطمئنان الذي يريح نفسها:

﴿أَلا بِـذِكْرِ اللهِ تَطْمَـئِنُّ الْقُلُـوبُ﴾ فسـكن روعهـا وهـدأت آهاتهـا، وعلمـت أنـه لا شيء يسـتحق دموعهـا غـير المخافـة مـن الله، وطمع في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

الرحلة المؤجلة

هَرَعَ من كان في البيت علىٰ صوت صياح وبكاء.

هرعوا إلىٰ مكان نومها، وأحدهم يصطدم بالآخر، فقد كان الصوت مخيفاً مصحوباً بالصراخ، كادت قلوبهم تسبق أقدامهم ليروا وحيدتهم وما الذي أصابها! مدللتهم التي يتسابقون لتلبية حاجاتها.

الأُم كانت أسرع خطوات من الأب، لأن قلبها سبق كل خطوات العالم، دخلت وهي مدهوشة وضمّتها إلىٰ صدرها.

هنا انتهبت وهي تلمس أُمّها في كل ناحية من جسمها، وقد فتحت عينيها، كان الشرار يتطاير منهما ليحرق من بجنبها، وتتلعثم بكلمات: أمي، أمي، هل أنا أحلم أم ماذا؟

هل أنتِ أُمي حقاً إلىٰ جنبي؟

وهذا الواقف هو أبي؟

وهذا بيتنا؟

هل ما زلت علىٰ قيد الحياة؟

فأخذتها في حضنها الدافئ الذي اعتادت أن تستقر فيه وهي تهدئها.. نعم أنتِ كما أنتِ! ها نحن معك (حبيبة أمك الغالية)

تكلمي: ماذا حدث؟

مهلاً يا أمي، دعيني أرتشف قليلاً من الماء.

كأني دُعيت إلىٰ سفرٍ، جاءني نداء: هلمّي إلىٰ رحلة، وجهزي نفسك، وهيا بنا، هلمي معنا.

فخرجت حتّىٰ وصلت إلىٰ مكان يشبه المطار، أو مكان يذهب الناس فيه إلىٰ أماكن مختلفة، حتّىٰ استوقفني اثنان لم أر أقبح منهما خلقاً في حياتي! وأنا فزعة مرعوبة من قسوتهما.

وسألاني بزجر: إلىٰ أين؟

فتلعثمت بالكلام، وأجبتهم: جاءني نداء إلىٰ رحلة!

فنظرا في أوراقي وجوازي، ونظر أحدهما إلىٰ الآخر نظرة كدت أُصعق من هولها، وقالا: انتظري قليلاً.

وأنا أنظر إلىٰ من حولي، أرىٰ أناساً بملابس جميلة، يصحبهم أُناس بغاية الجمال وبغاية الرقة.

وأرىٰ آخرين يُسحبون بسلاسل ويصرخون يستغيثون! ولكن لا أرىٰ أحداً يسمعهم أو يغيثهم!

سألت وسألت، لماذا هم هكذا؟

فكانت الإجابة: لو لم تؤجل رحلتك لكنتِ معهم، فكم تبرجت وخرجتِ وأنتِ متزينة؟

كم ليلة نمتِ علىٰ صوت الغناء؟

وكم وكم وأنا في هذه الدهشة، التفتَ إليَّ أحدهم وقال:

قد أُجِّلت رحلتكِ إلىٰ غير هذا الموعد.

العشق الحقيقي

أيام تمر وأعوام تذهب والعمر يمضي في المسير للأمام، ولا أعلم هل ستتغير حياتي أم أبقىٰ هكذا؟

سؤال يدور في ذهني: ألست أنا فتاة ومن حقي أن أعيش؟! أم كُتب عليَّ العناء والشقاء قبل أن أولد؟

كل هذه الأفكار كانت تدور في مخيلتي وأندب حظي الذي جعلني هكذا.

وأنا لم أقصر في عملي حتّىٰ أُعاقب هكذا؟

أنا لم أقصر في دراستي وتفوقت، فلماذا أترك الدراسة رغماً عني طاعة لقرار من الأب؟

أنا لم أترك صلاتي أو صيامي وملتزمة بالحجاب؟

أنا لم أفتر ساعة أو لحظة عن الدعاء لأنني أعلم أنه سلاح المؤمن؟

أليس من حق أي فتاة أن تعيش أنوثتها وتتزوج وتنجب؟

أليس من حق كل متفوق بالدراسة أن يكمل دراسته ويصل أعلىٰ المراتب ويحصل علىٰ ثمرة دراسته؟

كل هذه وغيرها من التساؤلات كانت تدور في ذهني، وأمواج من الأفكار والهواجس والوساوس بين النفس والروح وبين شيطان يقول: إنك مظلومة وتصرفي خلاف ذلك، واحصلي علىٰ حقك، وبين كلام للعقل والروح تقول: إن الله عادل ويعلم ما فيه مصلحتك وأن الله لا يكلف نفساً إلّا وسعها، والمؤمن مبتلىٰ، والصبر أعلىٰ الدرجات التي بشر الله بها عباده بأن لهم الجنة.

كل هذه الصراعات تدور وتأخذ مأخذها مني، أريد شخصاً يشاركني همومي، أريد شخصاً يسمعني، أريد شخصاً أستند إليه وقت الشدة.

بين كلام صديقة وصديقة وناصح لي ومحب لي: اذكري الله واصبري، اشغلي وقت فراغك بالقرآن والصيام والدعاء، وبين أكفٍّ رُفعت تدعو لي بكل صلاة.

لكن الله سبحانه إذا أحب عبداً أنزل عليه فيوضاته وبركاته وجعل في قلبه نوراً للهداية.

أدركت أن معرفة الله هي ما يجب عليَّ أن أفكر فيه، وأن الله وحده هو القادر علىٰ كل ما أتمنّاه، وهو وحده من يغير الأحوال

من حال إلىٰ حال، وأنا دائماً كنت أتساءل مع نفسي: أليس لنا ولي أمر؟ أليس لو كان وجودي في زمن الرسول ﷺ لوجد لي حلاً لمشكلتي، أو في زمن إمام معصوم؟! ولكنني اكتشفت أنني أنا السبب في تحطيم نفسي، لأن الإمام المعصوم عليه السلام موجود ويسمعني ولكنني لم أصل إلىٰ درجة الحب الحقيقي والشوق الحقيقي له، لكي أقترب منه انشغلت بالتفكير بملذات الدنيا ولم أنشغل بالتفكير به كيف أستطيع أن أصِل لمن هو أحق بالحب، لمن هو الآن وليُّ أمرنا.

هذا الحب لا يكفي فيه الحب القلبي والمشاعر، إنما يحتاج إلىٰ معرفة حقيقية عن ماذا يريد مني، وما هو تكليفي وواجبي في زمن غيبته، وكيف أُمهّد لظهوره، والإحساس بالتقصير بحقه يجعل لدي دافعاً للبحث والدرس أكثر.

إننا غافلون

عندما يغلق باب في وجوهنا، نتوقع أنها نهاية المسير، ولا نعلم أنَّ هناك ألف باب وباب نستطيع أن ننفذ من خلاله ونبدع ونتفوق، والله تعالىٰ عادل حكيم يعطي كل ذي حقٍ حقه، فعلينا أن لا نحصر تفكيرنا في زاوية ضيقة، فهناك من يستحق أن نجتهد للوصول إليه والتقرب منه لا الابتعاد عنه، ومن أحبّه حباً يدرك به معرفته، فإنه سيرتوي حقيقةً... ولا يحتاج لمعشوق غيره.

المصير المجهول

بكت وصرخت وأخذت تجر بشعرها.

ثم تعود لتهدأ قليلاً وتفتح عينيها بكل ما أوتيت من قوة، لتجد قوة أخرىٰ تقاومها لفتح تينك العينين فتصر علىٰ فتحهما رغم الألم.

فتبصر ذلك الشبح المجهول الذي يلاحق نظراتها.

وكلما أشاحت بوجهها عنه وأدارت عينيها يكون قد سبقها لذلك الاتجاه.

فتغمضهما لتعود إلىٰ البكاء.

تبدأ بمراجعة شريط حياتها وكيف وصلت إلىٰ هذه الحال.

آلاف الأسئلة تحوم كسرب طيور لا نهاية له.

لماذا وصلت بي الحال إلىٰ ما أنا عليه؟

هل فعلاً هذه أنا؟!

هل ولماذا وكيف ومتىٰ؟

لكنها لم تجد نهاية لتلك التساؤلات.

حتّىٰ أُنهكت قواها.

وأصبحت لا تقوىٰ علىٰ أن تنزل دمعة أو تبوح بصوت.

وهي تعيد مرات ومرات شريط حياتها.

في خضم هذه الصراعات تذكرت ذلك الواعظ الذي كثيراً ما أسدىٰ لها النصائح وكانت تَعده خيراً وتتخذ القرار بما يريد.

وسرعان ما تجد نفسها أسيرة شهوتها.

ولكي تجد مبرراً لذلك تتحجج بأن كل ما تفعله هو لكي تنمي مواهبها أو تقتل وقت فراغ أتيح لها.

فتطلب الوعظ بعد أن تشعر أنها ربما ستسقط في ما لا تريد.

وتعود لنفسها وتأخذ أمر عقلها.

ولكن يبقىٰ ذلك الهوس لا يفارقها.

بين هذا وذاك بين وعظ الواعظ وبين ما تريد النفس عاشت ذلك الصراع الذي انتهىٰ بها بارتكاب المعاصي والذنوب، وتخسر نفسها وما حولها.

وهذا بسبب ضعفها وزعزعة إيمانها وعدم انتصارها علىٰ النفس الأمارة بالسوء.

فلو كانت صادقة مع نفسها ومع ربها لما وصلت لتلك المرحلة.

ابتسامة بريئة في وجه قاتله

لفتت نظري وأنا أُقلِّب صفحات كتاب قديم، وجدته قرب مكان رمي القمامة صورة طفل، مبتسم ابتسامة بريئة، وأمامه طابور طويل من الأطفال، قد أحاط بهم رجال يرتدون البزة العسكرية، فأطلت النظر طويلاً لهذه الصورة، وفي داخلي ألف سؤال وسؤال.. يا هل ترىٰ ماذا ينتظر هؤلاء الأطفال في هذا الصف الطويل؟ بل لماذا لا أرىٰ أُمهاتهم معهم؟ هل جميعهم يتامىٰ؟ ماذا سيوزع عليهم من حلوىٰ أو هدايا؟ وماذا، وماذا، وماذا؟

وأنا مستغرقة بالتفكير والتساؤلات أطلَّ أبي برأسه من باب الغرفة وناداني باسمي فلم أجبه، نادىٰ ثانياً وثالثاً فانتبهت لصوته، وقلت: نعم، نعم، أبي، ابتسم تلك الابتسامة التي يشعرني بها بحنانه وعطفه وبادرني متسائلاً: بنيتي أراك مشغولة البال، مشوشة الفكر، هل هناك شيء في الأُفق؟

لقد ذهب بعيداً في أفكاره وهو يعرفني حق المعرفة أنا لا أخفي شيئاً في حياتي عنه. هكذا علمنا وهكذا سارت حياتنا، ابتسمت بوجهه وقلت له: هل يسرك ذلك؟ قهقه قهقهة خفيفة، وغمز لي بعينه وهو يقول: لا أظن ذلك!

لمَ يا أبي؟

- بل أقول يقيناً ليس هناك شيء مثل ذلك.

فبادرته ومن أين لك كل هذه الثقة؟

- أجابني مبتسماً: لأنكِ ابنتي.

فدنوت منه وقلت له: أبي، لقد شغلتني هذه الصورة كثيراً، وذكرت له ما دار في نفسي من الأسئلة. أمسكني من يدي وأجلسني إلىٰ جنبه علىٰ أريكة اعتاد الجلوس عليها، وقد بان علىٰ وجهه حزن شديد وبدت تنهداته تسمع من مكان، ابنتي، حبيبتي.. هذا طفل مع قاتله! بل قولي أطفال مع قاتليهم.

هنا أصابتني رعدة في جسدي، وأنا أقول لأبي: مع قاتله؟!

نعم يا ابنتي، نعم.. انظري إلىٰ هذه الصورة ولا تغرك ابتسامة هذا الطفل أو ذاك لأنهم أطفال لا يعلمون شيئاً، كان هذا في زمن طاغية العصر أبان حكم البعث، وهؤلاء جلاوزة المقبور اللعين كانوا يسوقون الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً، يفرقون العائلة

الواحـــدة يأخـــذون الرجـــال إلىٰ جانـــب والنســـاء إلىٰ جانـــب، والأطفال إلىٰ جانب، ويدفنون تلك الأجساد وهم أحياء.

هنا لم أتمالك نفسي من البكاء وأنا غير مصدقة ما أسمع.

أحـد الجلاديـن يـروي وهـو يتفـاخر بفعلتـه الشـنيعة، ولعلـه واحد مـن هـؤلاء الـذين في الصـورة، يقـول: عنـدما جمعنـا الأطفـال ووضـعناهم في صـف طويـل سـأل أحـدهم: عـماه، مـاذا سـتوزعون علينا؟ وآخر يقول له: عماه، أنا عطشان، وثالث يطلب الطعام.

يقـول هـذا الجـلاد: فكـان أحـدهم يبتسـم في وجهـي، وودت أن أكســر أسـنانه التـي بـدت عنـد الابتسـامة، فيســرد مـا جـرىٰ بكـل تفاخر.

حفـروا حفـرة كبـيرة وجئنـا بهـؤلاء الأطفـال ووضـعناهم في تلـك الحفـرة، وبعضـهم يبتسـم في وجوهنـا وهـم يقولـون: أي لعبـة سنلعبها هنا.

إنه زمان وأد جديد يا بنيتي.

فبـدأوا بـدفن تلـك الأجسـاد الغضـة الطريـة ومـازال فـيهم مـن يبتسم بوجه قاتله.

الماضي الجميل

استلم الأجر الذي يتقاضاه عن عمله وهو مبلغ يسد احتياجاته في أكثر الأحيان، فعاد إلىٰ بيته يحمل لأطفاله الحلوىٰ التي يحبونها كما عودهم في كل شهر، وبعد أن ركن سيارته جلس ليستريح وبادرته زوجته بكلام لطيف لتخفّف عنه عناء العمل، وسقته بكأس الماء المعتاد.

نعم جلس ولكن فلذات كبده الذين لم يفقهوا بعد ما معنىٰ أن يعود الأب متعباً، فبادروه بطلباتهم للعام الدراسي الجديد!

فاقتربت من تعتقد أنها الأحب إليه، وبمكر جميل قبّلته، ثم انهالت بطلباتها بتغنج ودلال.

أبي حبيبي، أريد وأريد وأريد.

فابتسم وقبّلها وقال لها: أمرك يا أميرتي الجميلة.

وكذا فعل الآخرون.

بعد أن وعدهم بتلبية حاجاتهم عادت به الذاكرة إلىٰ زمن بعيد وزمن قريب، ولكنه ابتعد في الاستغراق في الماضي لترتسم

علىٰ محياه ابتسامة طويلة ليثير ذلك انتباه شريكته في الحياة فتبادره بالسؤال.

هنّأك الله وجعل أيامك سعادة وسروراً، ولكن هل لي أن أشاركك هذه اللحظات الجميلة التي أنت فيها وأعرف سر هذه الابتسامة؟

فقهقه قهقهة خفيفة.. نعم يا حبيبتي نعم..

مر شريط الذكريات أمام عيني وتذكرت طفولتي وأيام دراستي الابتدائية وكيف كان أبي الذي كان بالكاد يوفر لقمة العيش لنا يجهد نفسه ليعطينا مبلغاً يسيراً كمصروف يومي، وبما أني كنت الصغير وفي الصف الأول فكان يعطي مصروفي لأخي الكبير وهو يشتري لي في استراحة الدرس، فأسأل أخي: من أين لك النقود؟

فكان جوابه: أجدها في قارعة الطريق!

وجدت نفسي يومياً لا أرفع رأسي أبداً في طريقي إلىٰ المدرسة لعلي أَجِد نقوداً كما يجد أخي الكبير.

فضحكت وضحكت معها وحمدنا الله علىٰ جزيل نعمه التي لا تحصىٰ. وأدركنا مقدار ما كان يتعب الأب من أجل سعادة أولاده.

الطفلة الأم.. ذات الأوجاع

من كبد المعاناة يولد البدر، لينير طريق الألم الذي عاشه، فقدتُ أُمّي وفقدت بفقدانها سيطرتي علىٰ زمام الأمور، فهي من كانت عزمي وحزمي.

تعاقبت الأيام بين حرارة البلاء، ومعاناة الألم والفقر والعوز، كبرت حتّىٰ اشتد عودي، وقوي ساقي، وأنا في خضم السنين المنصرمة فقدت حنان الأُم وعطفها، وفقدت المداراة كلها، تقدم لي أحدهم للزواج فقبلت به، آه وكم هو جميل فقد رزقت بطفلتين كأنهما البدر أسميت إحداهما بنور، وأخرىٰ دعاء، في يوم ما طلبتا من أبيهما قصصاً مصورة وعلبة ألوان زيتية فذهب أبوهما ليحضر لهما ما طلبتا:

فتحدث مع صاحب المكتبة..

أعطني عشر قصص مصورة وعلبة ألوان زيتية..

فرد عليه صاحب المكتبة قائلاً:

هذه القصص يا ولدي، لكن ليس لدي ألوان زيتية، توجد ألوان خشبية فقط، أتريد؟

لا شكراً، أنا بحاجة للألوان الزيتية فالخشبية قاسية علىٰ أنامل طفلتي الرقيقتين ذواتي الستة أعوام، تفضل ثمن القصص.

رجع الأب يخطو بخطوات متسارعة، وبصوت عال نادىٰ:

أين ريحانتاي من هذه الدنيا؟

فأجبته:

أرادتا أن تلعبا سوياً، فأخذتهما لغرفتهما.

فإذا به يرد عليه بقلق وخوف:

لِمَ لمْ تبقي معهما أخشىٰ أن تتأذىٰ إحداهما.

جعلتهما يلعبان لعبة هادئة؛ مسابقة رسم، وبعد أن ينتهيا أقيِّم الرسمة الفائزة، وعدتهما بهدايا ريثما ترسمان، أتيت لأتم أعمالي.

حسناً سأذهب لأُريهما ماذا جلبت لهما.

لأضع المشتريات في الغرفة نريهما في وقت لاحق، ربما يحبان اللعب أيضاً فيما بعد.

مادام كذلك أذهب للاطلاع علىٰ مجريات المسابقة.

يا ابنتي العزيزتين، من أكملت رسمتها؟

نور ماذا تفعلين؟ توقفي، توقفي.

نور تبكي من الألم بصوت عال، ماذا جرىٰ؟

سمعت صراخها وأنا في المطبخ أحسست أن قلبي قد وقع من مكانه، وأسرعت راكضة نحو غرفتيهما، ماذا بك يا بنيتي؟

سقطت دعاء وهي تلعب بعد ما أنهت رسمتها، كانت فرحة لأنها سبقتني.

لكنها ملأت الأرجاء صراخاً.

حملها الأب وهي مختنقة من البكاء الممزوج بالنشيج من شدة الألم، وأنا أنادي بسم الله يا بنيتي اهدئي، حبيبتي اهدئي ماما اهدئي.

ماما إن يدي تؤلمني.

البكاء مجدداً.

أسرعنا بالاتجاه نحو المستشفىٰ، يا عزيزي حافظ علىٰ يدها مستقيمة.

ونور معنا.

نعم.. انتبه للطريق وإلّا أصبحنا بمصيبة ثانية.

منتبه منتبه.

حال وصولنا للطوارئ..

بدأ الطبيب يتساءل ما بها وسبب صراخها.

سقطت سقطة خفيفة علىٰ يدها وبدأت تصرخ حد الاختناق، أخشىٰ أن عظمها تهشم كلياً.

إن شاء الله لا شيء.

دعني أفحصها.

أين الألم بابا؟ هنا؟

صرخت عندما أمسك يدها.

فقط أجروا لها تصوير أشعة.

دكتور من فضلك أختها نور كذلك منذ أيام تشكو من ألم في عظامها يا حبذا لو نجري لها أشعة وفحوصات مع أختها.

الطبيب: لا مانع من ذلك.

دعاء يدها غير مهشمة لكن الكسر كبير سأباشر تجبيرها بنفسي، لا داعي للقلق فقط سكنوا من روعكم، بسيطة لا تخافي يا دعاء، وأنت أيضاً يا نور سنجري لكما تحاليل لن يؤلمك شيء بعد اليوم.

والآن انتهينا من كامل الإسعافات الضرورية. الأب بدأ باللوم والعتاب.

لماذا سمحتِ لها باللعب؟

صغار لا يدركون خطورة ما يفعلون.

اخفض صوتك ستصحو أنها أخذت مُهدِّئاً.

تعالي نتحدث بمكان آخر..

حسناً في قاعة الانتظار.

يجب أن نفعل أي شيء لكي لا تسأم علينا أن نملأ وقتها..

نعم بكل تأكيد..

تنهدت الأُم بحسرة.. كسرها عميق هذه المرة، في المرة السابقة أخذت شهراً حتّىٰ شفيت..

أرجو من الله أن تشفىٰ بأسرع وقت، ليس بيدنا شيء، علينا الصبر.

لكن الصاعقة التي نزلت بنا عندما نادىٰ الطبيب ليكلمنا.

الدكتور.. أيتها الأُم..

لقد ظهرت نتائج التحليل، ولكن النتائج مؤلمة.

ماذا تقول؟ أرجوك لا تخفني، ما بهما؟

الدكتور: البنتان فيهما مرض سرطان..

وهو من الدرجة الرابعة التي لا محال من الموت إلّا بقدرة الله ومعجزته.

آسف ولكن كان لابد أن أخبركم بذلك.

الأُم: بعيون دامعة، بالله عليك كم تبقىٰ لهما للعيش؟

الدكتور: ٣ شهور.

تنهدت في آه يسمعها من سكن السماء، ومن قرارة قلبها المليء بالحرمان واليتم.

لماذا يا أيها المرض هل أنك بلاء؟

أم أنك امتحان؟

أم أنك هادم اللذات، ومفرق الأحباب؟

ذهبت الأُم.. لتعيش مع طفلتيها..

آخر الأيام بين الدلال.. والألم والحرمان..

بقيت الأُم تذبل كأنها أشجار الخريف التي تجردت من أوراقها.

فسقطت من شجرة الأُم ورقتا بنتيها اللتين كانتا تأمل أن تعوضهن الحنان الذي فقدته. لكنها لا تدري ما الذي يخبئه لها القدر.

عاشت مهضومة بفقد الأُم.. وفي الزواج مألومة بفقد فلذة كبدها.. وفي الشيخوخة موجوعة لما مرَّ بها..

وهذه الحكاية من ألم الواقع. الذي تعيشه الكثير من الأُمهات بسبب هذا المرض الخبيث الذي يخطف فلذات أكبادهن كلمح البصر..

أنا لست كالأُخريات

خرجت يوماً مع أُمها لكي يتسنّىٰ لها أن تتبضع ما تحتاجه كفتاة، هي ترىٰ من حولها قد اقتنين ما أبهر العيون، لكنها بسبب التعسف والشك الذي يجتاح تفكير والدها، والذي يرىٰ أن الفتاة ليس لها الحق باختيار أي شيء يخصها، وليس لها حق الخروج من المنزل لأي سبب كان، لكنها هذه المرة كانت تحاول كسر ذلك الطوق وتخرج..

لكن هل دار في مخيلة أحد كيف كان خروجها؟

ربما يظن معظمكم أنه خروج عادي كأي فتاة تخرج مع أُمها.

عذراً كان خروجها بعد مفاوضات مكوكية بين أُمها وأبيها الذي يرىٰ أن الفتاة لا يحق لها أن تنظر من النافذة، لكن بعد أن وضع شروطه القاتلة وافق علىٰ مضض بعد أن حصل علىٰ وعد من الأُم علىٰ الحفاظ، والتوصيات الشديدة وكأنها ستخرج وسط مجتمع غريب عن مجتمعه وعاداته وتقاليده.

نعم خرجت وكأنها ترىٰ عالماً جديداً، فجالت في خاطرها صور وأحداث وأحلام قتلت قبل أن تولد، فهامت بنرجسية فتاة حالمة ترسم هنا صورة وهنا حلماً وهناك أُمنية، حلقت كفراشة ترىٰ حقل الورود تنتقل من وردة لأُخرىٰ وإذا بصوت أُمها يوقظها من سباتها منادية:

أيتها الحمقىٰ لا تنظري إلّا إلىٰ الأرض، فانتبهت فزعة وملأ عيونها دمع، أخذ ينسل علىٰ خديها ليحفر بحرارته أسىٰ الحزن، وهي تردد همساتها ليس لك، ليس لك، ليس لك فأنت لست كالأخريات.

النفوس الطيبة

بعد أن فرغت من العمل بعيادتها الخاصة وهي تفتخر بنفسها أنها تعمل كطبيبة.

وما زادها افتخاراً بنفسها ذلك المديح الذي ينهال عليها من الناس أينما توجهت لأنها جعلت الإنسانية في التعامل مع مرضاها والود وطيب الاستقبال قبل مهنتها، ومرضاة الله في تعاملها مع الناس.

نعم بعد الانتهاء من عملها هاتفت سندها ورفيق دربها في كل شيء، حيث بنيا حياتهما علىٰ الود والانسجام والتعاون، فحضر والابتسامة لا تفارق وجهه عند لقياها رغم عمله المضني في الطب.

توجها إلىٰ بيتهما يداعب أحدهما الآخر بكلمات تخفّف عنهما عناء العمل، بينما هما في طريقهما إلىٰ المنزل تذكرت أنها بحاجة إلىٰ بعض ما يحتاجانه من سلع وبضائع فطلبت منه أن يوقفها عند أقرب مركز تسوق.

وفعلاً ركن السيارة جانباً ودخلا مركزاً للتسوق وتبضعا ما يريدان واتجها لإدارة السوق ليدفعا النقود، وحينما دخلا ورأت مدير السوق فتحت عينيها ووقفت قدماها عن الحركة.

نظر إليها رفيق دربها متعجباً ما بك؟

اصبر قليلاً لكي استوعب الأمر!

ما الخبر؟

سأحدثك بعد خروجنا لا عليك لم يكن أمراً مهما.

عادا إلىٰ سيارتهما وانطلقا.

التفت إليها: نعم حبيبتي تكلمي..

فابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت: فعلاً النفوس الطيبة لا تتغير والقناعة كنز لا يفنىٰ وعزة النفس لا يمكن أن تكون إلّا عند من يستحقها.

نعم حبيبتي ولكن ما الأمر؟

هل تعلم أن صاحب هذا السوق الذي كنا عنده قبل قليل كان اليوم عندي في العيادة، وعندما أبلغته بتكاليف علاجه أخذ مني وقتاً وهو يحاول أن يقلّل المبلغ بحجة أنه ليس بمقدوره أن يدفع مثل هذا المبلغ، وعادة أنا لا أحب أن أتعامل بمسألة الأجور وأخجل جداً من التعامل ولا أقف علىٰ سعر أبداً.. لكنني أنزعج من شخص يحرجني ويخدعني.. فاتفقنا علىٰ السعر الذي يناسبه.

وفعلاً خفّضت لـه المبلـغ إلىٰ حـد سـد التكـاليف، وعنـد الانتهـاء سلّمني المبلغ المتفق عليـه وعنـد خروجـه وجـدت المبلـغ ناقصـاً لأني خجلت أن أعده أمامه.

وبعـده دخلـت فتـاة يتيمـة وأُمهـا، العائلـة دخلـت إلىٰ صـميم قلبي لأن منظرهم كـان منظـر البسـطاء الهـادئين ويحكـي الخـوف مـن الله تعالىٰ.

سـألت الفتـاة عـن اسـمها وهـي بالعشـرين فأجـابتني بخجـل وحياء مفرط..

سألتها كم عمرك؟

قالت: لا أعرف ما هو عمري!

قلت لها: وأنا ابتسم باستغراب أين هويتك؟

لكنها أجابت وبخجل: إنني لا أمتلك هوية!

فـأدرت وجهـي ناحيـة الأُم وسـألتها: لمـاذا هـذا؟ مـا ذنـب هـذه الفتاة؟

قالت: إن أباها توفـاه الأجـل وهـي طفلـة صـغيرة ولم يسـتطع أن يعمل لها هوية!

قلت: وأنت لماذا لم تعملي لها هوية؟!

قالـت: يـا ابنتـي أنـا أعمـل بكـل جهـد أخـرج مـن الفجـر إلىٰ الغروب من أجل معيشتهم!

ومن الملفت للانتباه أنهن يُجبن علىٰ أسئلتي وهن مبتسمات وبدون نبرة شكوىٰ واحدة أو تذمر مما يعانين من ألم وحرمان وتعب.. بالإضافة أنه لفت نظري وأنا أعالج أسنانها انتبهت إلىٰ ملابسهم الرثة المتعبة لكنها نظيفة جداً ورائحة كأنها المسك.

أمّا أنا فتألمت جداً لما تعاني منه هذه المرأة من معاناة وحمل ثقيل عليها.

وبعد السؤال عرفت أنهم يعتاشون علىٰ ما يلتقطونه من القمامة ليبيعوه ويسدوا به رمقهم، فاتخذت قراراً أن لا آخذ منهم أي مبلغ، ولكن عند انتهاء جلسة العلاج توجهت الأُم بالسؤال لي.

ابنتي كم المبلغ؟

قلت: لم يكن هناك مبلغ، لم أعمل أي شيء.

ولكنها رفضت الخروج من العيادة إلّا أن تدفع تكاليف علاجها. رفضت مساعدتي بكل الطرق التي حاولتها، رفضوا إبقاء جزء من المبلغ إلىٰ ما بعد إكمال العمل المتبقي، يقولون: هذه الدنيا لا نعرف متىٰ نموت وهذه حقوق تبقىٰ في ذمتنا!

فقبَّلتها، وقلت لها: ألم تناديني ابنتي؟ فهل البنت تأخذ من أُمها.

ابتسمت ابتسامة أم حنون وقالت: نعم، تأخذ من أُمِّها.

ولم تخرج إلّا بعد أن دفعت مبلغاً فأرجعت لها ثلثيه وقلت لها: هذا يكفي.

فخرجت وهي تدعو لي.

ولكن النفوس الطيبة لا يغرها أي شيء.

فأثبتت لي يا زوجي هذه المرأة أن القناعة تؤدّي إلىٰ رغد العيش وعزّة النفس وراحة البال والسعادة الأبديّة، وهي سبيل الأولياء والأتقياء.

وهي الرضا والقبول بما هو مقسوم، وعدم النظر إلىٰ ما في أيدي الغير، فالقناعة كنز لا يفنىٰ، فإذا كان الشخص قنوعاً زاده الله من خير وبركات في ما هو بين يديه وعوضه الله عن ما ينقصه بأكثر مما يحتاج من فضله، أمّا الشخص الذي ليست لديه القناعة فيكون شخصاً جشعاً وطمّاعاً، لا يحمد الله علىٰ ما أنعم عليه به من أمور كثيرة في حياته وينكرها للأسف هذا الشخص الطماع الذي لا تظهر عليه آثار نعم الله.

دعيني أشم رائحة الجنة

اعتاد كل صباح أن يسلك هذا الطريق المؤدي إلىٰ مكان دراسته، فالجامعة التي يدرس فيها لا تبعد كثيراً عن بيتهم، لذلك كان يستغلّ هذه الدقائق - التي لا تزيد علىٰ العشرين دقيقة - في مراجعة الآيات القرآنية التي حفظها ليلاً.

نسيت أن أذكر لكم، فقد قرّر أن يحفظ ما يمكن أن يحفظه من القرآن الكريم، وقد وضع برنامجاً لذلك، فهو اعتاد علىٰ أن لا يهدر وقته إلّا بما ينفعه، فكل دقيقة كان قد خطط لها بإتقان ليصل إلىٰ هدفه الذي يصبو إليه، فهذه الدقائق ينتفع منها ويُسمع نفسه ما تم حفظه، وكذلك ليمارس هوايته في السير علىٰ قدميه كرياضة أحبها منذ زمن بعيد.

وفي يوم شتاء بارد، وذرات مطر تتساقط بهدوء لترسم منظراً مدهشاً، وهو يحمل بعض الكتيبات، ويمسك بيده تلك المظلة القديمة التي ورثها من أبيه، وكان يعتز بها رغم قدمها، لكن كانت تحمل رائحة أبيه فلا يقتني غيرها، رغم يسر الحال الذي كان هو فيه بما ورثه من أبيه هو وإخوته.

نعم في ذلك اليوم لفت انتباهه شيء في طريقه، لم يكن اعتاد رؤيته، رغم أنه لا يحدق كثيراً في الأرض، ليتجنب حالة الفضول التي قد تصيبه إن رأىٰ أشياءً، فيشغل نفسه لمن هذه، ولِمَ هي هنا، وكيف أتت وغيرها، فهمُّه أن لا ينشغل بما لا يعنيه.

ولكن ما رآه لم يكن بالإمكان تجاهله، لأنه حدث يثير التساؤل، بل يحرك الشعور بالإنسانية عند من يمتلكها، وخاصة إذا كان هذا الشعور مغلفاً بالدين وحسن الخلق.

وقف وكأن شيئاً قيّد قدميه، دقّق النظر، وإذا بعجوز سبعينية العمر أو أقل قليلاً، ولكن لا يعرف هل هي فعلاً استوفت من هذه الدنيا سبعينها، أو ستينها، وقف وهو يحدث بنات أفكاره: ما لي وعمرها؟ وكم أخذت من هذه الدنيا الفانية؟ أو الدنيا أخذت منها ثمن تلك السنين؟

أتعلمون لِمَ شدّه الحدث، وتوقف عن الحركة؟!

لأن منظر تلك المرأة غريب فعلاً، فقد افترشت الأرض والتحفت السماء في يوم لا تخرج فيه الناس إلّا لضرورة عمل أو ضرورة أخرىٰ.

انحنىٰ قليلاً، وحياها بتحية الإسلام، فردت عليه بصوت ضعيف مرتجف، والبرد يهز أجزاء جسدها المتهالك.

أيتها الحاجَّة، لِمَ أنت هنا في هذا الجو الممطر البارد؟

وأين أذهب يا بني؟

إلىٰ بيتكِ!

عندما سمعته فتحت عينيها، وهي تحدق به، وتطيل النظر إليه لتسكب دموعاً أحرقت حرارتها جلد وجهها المتجعد.

بيتي؟!

كان لي بيتٌ.. كان لي بيتٌ جميل ببناء، لكنه خاوٍ من داخله.

وأين أصبح الآن؟

هو موجود كما كان.

إذن لماذا تركتيه وافترشتِ الأرض؟

لم أتركه، بل هو تركني!

كيف تركك وهو حجر لا يفقه إلّا التسبيح؟

مَن بداخله أجبروه علىٰ أن يلفظني خارج أسواره! أولادي الذين حملتهم، وربيتهم وأطعمتهم، وأعطيتهم من كلي لجزئهم، قالوا: لا حاجة لنا بكِ، فقد أصبحت ثرثارة تؤذين زوجاتنا بطلباتكِ، فاخرجي لا نريد أن نراك هنا!

كان كلامها كالصاعقة التي نزلت من السماء، أو كَسهم أصاب قلبه العطوف.

لم يصدق ما سمعه.

هل من الممكن أن يوجد إنسان بهذه الوحشية؟!

أفعلاً ما تقول هذه المرأة؟!

وبين تلك التساؤلات أوقفه صوتها المرتعش: بني إن كنت تريد مساعدتي فاحملني إلىٰ دار العجزة.

فالتفت إليها: أ بهذا الحال؟

نعم بني، نعم.

هل تسمحين لي بأن أصحبك إلىٰ منزلنا لتحصلي علىٰ الدفء، وقليل من الطعام، ثم أحملك إلىٰ أي مكان تُريدين؟

أشكرك يا بني.. إن كنت تريد المساعدة فاحملني إلىٰ حيث أرغب.

نهض مسرعاً، وأشار بيده إلىٰ مركبة قريبة، وساعدها علىٰ النهوض وأوصلها إلىٰ حيث تريد.

وبما أنه تأخر كثيراً عن موعد درسه، والحزن يلفُّه، قرر العودة إلىٰ البيت وهو غير مصدق ما رأىٰ.

دخل مسرعاً إلىٰ حجرة أُمِّه فابتسمت بوجهه ابتسامة الرضا، وحدّقت بعينيها بنظرة استغراب، وهي ترىٰ الحزن ظاهراً علىٰ محياه وعودته مبكراً.

سلَّم عليها وبدأ كعادته يقبّل يديها، وهي تقبل رأسه وتشمه، انحنىٰ علىٰ قدميها ليقبلهما، وهو مستغرق بالبكاء.. منعته وسحبت قدميها! ألحّ كثيراً لتقبيلهما، وهي تأبىٰ ذلك.

رفع رأسه وناجاها بصوت رقيق مختلط بالدموع: حبيبتي دعيني أشم رائحة الجنة.

هكذا حظي

خرجت صباحاً لتبحث عن شيءٍ قيل لها إنه عاثر.

تساءلت مع نفسها أين يمكن أن يعثر؟!

أهو لا يبصر الطريق؟

أم خرج بعد أن زادت عتمة الليل بسبب زفرات وآهات المجهول؟!

أم خدع بأنوار كاذبة كالسراب؟

وبين هذا وذاك رأت قدمها تنزلق في الوحل فأيقنت أنه..

عاثر.. عاثر.. عاثر.

بإيمانها هزمتهُ وبعقلها سلكتهُ

إنني حزينةٌ.. نعم حزينـةٌ، إنـه حـزن الحـب في قلـب النجـوم، إنـه حزن الجمال في وجه الأقـمار، إنـه نفحـة العشـق في سـماء الكـون، إنـه حــزن الــوردة لفــراق الفراشــات، إنــه حــزن الــذوبان في طريــق الوديان.

هكذا اعتـادت كـل صـباح؛ بعـد أن تتـذوق حـلاوة مناجـاة مـن أحبّته وتشعر بالاطمئنان والراحة بعد كل مناجاة لربها.

تجلس وهـي تمسـك كتـاب الله؛ لترتـل بعـض آياتـه، رغـم أنهـا لم تر من يفعل هـذا في ذلـك البيـت الـذي ولـدت وترعرعـت فيـه بـين أهلها!

نعم، لم تشاهد من يفعل هذا الشيء!

فكــل مــن معهــا في المنــزل يصــلون ويصــومون، لكــن يــؤدون الفريضة فقط، وكل منشغلٌ في حياتـه، فلـم تجـد مـن يسـدي نصـيحة

للآخر، أو ربما قل: هكذا هي فطرتهم، ولكنها منذ صغرها ارتبطت بالقرآن؛ ليكون أنيسها في وحدتها.

وكعادتها في ذلك الصباح بعد أن أدَّت صلاة الفجر، جلست لتتلو بعض الآيات فمرت بتلك الآية المباركة التي تقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

هنا توقفت عن القراءة؛ وكأنها تقرأ هذه الآية لأول مرة، ولأول مرة يحدث هذا الشيء معها، إذ سرحت في أفكارها قليلاً لتزدحم الأسئلة في مخيلتها، وتتجاذب الأفكار في حالة من اليأس والبؤس، وبدأ الشيطان يقترب منها إذ وجد ما كان قد عجز عنه لفترة طويلة، وهو يحاول أن يغويها، وبدأ يهيئ لها سؤالاً تلو السؤال، ليعجزها عن الإجابة وتتنفس الصعداء لحقده عليها، ولكونها أتعبته كثيراً ووجد مبرراً للإغواء، لأنها بلغت الأربعين ولم تتزوج.

هنا همس لها: متىٰ أكون سكناً ومودة ورحمة؟

ألست أنا من بنات حواء؟

لماذا أرىٰ من حولي يهنأنَ بهذا وأنا لا؟

لم أعصِ الله كما تفعل الأخريات، ومع ذلك كان لهن ما أردن، لم أقصّر في عبادتي، لم أتكلم عن الآخرين بسوء، بل إن

قلبي يحب الجميع، ويتمنىٰ الخير للآخرين؛ عكس كثير ممن أعرف وها هنّ يتمتعْنَ بالسكن والرحمة ورُزقْنَ الذرية ويداعبن أطفالهن.

إذن لماذا أنا هكذا؟

ربما إذا عملت كما يعملن سأكون مثلهن، فكفاني تبتلاً وعبادة، وما الذي حصلت عليه غير الوحدة والألم والحزن.

هنا تحركت جنود الرحمن في عقلها، وخرت باكية وهي تذرف الدموع وتخاطب نفسها: ما الذي أسمعه منكِ أيتها النفس الأمارة بالسوء؟!

ابتعد عني أيها اللعين، لن تغويني مهما حاولت، فأنا ألوذ بكهف حصين، هيا ابتعد أيها اللعين.

وخرَّت ساجدة تناجي محبوبها: رحماك يا الله، إلهي لا تؤاخذني بما فعلت، اعف عني، رحماك يا رب.

فبينما هي كذلك؛ تستشعر لذة الغلبة علىٰ اللعين، وحبط ما جاء به وبطل ما كان يصنع، إذ غلب يقينها شكها، فاليقين يساوي طريق آل محمد عليهم السلام، والشك يساوي الشيطان الرجيم، إذ بزغ نور؛ ومن خلفه قائل يقول: استمري علىٰ جهادك كي أراك علماً يرفرف في سماء القرب، وفي قرب السماء أراك كوكباً، ككوب الزهرة، يزهر في جمال كماله، ويكتمل في جماله وبهائه،

فكم من قلب ساهٍ في جمال الكواكب، وكم من كواكب حلقت في جو القلوب.

سأنتظر نجمَ سعدي، وطالع حظي، وبريق أملي، ووداد روحي، وكمال نقصي، وتمام همتي، هيا بنا فإن الوقت تقتله الأيام، والأيام تقتلها السنون، فلنقطف آمال الشوق، وبهجة الذوق.

بوحُ قلم

أمسكته بأطراف أناملي لأرىٰ ماذا سيبوح للورق هذه المرة؟

أخذت الحروف تتساقط دموعاً متناثرة.. حمراء.. سوداء، دماء جراحات ودموع أحزان، احترت ماذا يريد أن يقول بالضبط؛ وإذا به يسطر أحرفه ليكتب.

أبتاه: يا أيها العراق المجروح.. إلىٰ متىٰ تبقىٰ جريحاً؟ متىٰ تشفىٰ؟!

اختنق قلمي بعبرته، وتنهد بحزنه وقد غطاه الألم ووشَّحه القلق، رجوته أن يكمل ما بدأ.. فقد راقني ما نزف من حبر!

كتب: دماء، دمع، أحزان، حرية، شهداء، قمع، اضطهاد.. لم أعرف مقصده، خطَّ حبره كلمات مبعثرة، ختمها بوطن مستباح.

قلت له: أنصت لي قليلاً ودوِّن لي ما حدث ويحدث، لم أعد أعرف من يقتل من؟ ومن معي ومن ضدي؟ تاهت عليَّ الأمور.

وجدته يستذكر كيف ساده الظلم لعقود ولَّت؛ قتل وتعذيب ومحن وويلات صبت فوق رأسه، حتّىٰ شاب رأس الرضيع من هولها، فغصَّ نهراه بدماء أبنائه، وما عاناه من سلطة الطاغية.. يزيد عصرنا هذا الذي عاث بأرض الرافدين فساداً، دمر الشعب وجعله يتضور جوعاً، أمّا جور جلاوزته الذين لم يرحموا صغيراً أو كبيراً فليس له ورق يكفي.. لأنهم مازالوا علىٰ ذات المنهج.

عندما أراد العراق أن يتحرر، غزاه الاحتلال، وبدأت مرحلة صراع جديد، أفاض عليه الدمار من حيث لا يعلم، أصبح يدفن زهور حياته يومياً بالمئات، استهدف الموت في بلدي الطبيب والعامل والطالب.. لم يستثنِ أحداً، لم يتركوا بيتاً إلّا سارت آلام الفقد بين جدرانه.

تكالبت عليه ذئاب الإخوة الأعداء من كل جانب تنهش لحمه وتشرب من دمه، فتقطعت أوصاله... تركته يئن ألماً.. طعنات توزعت جسده.. قاوم الاحتلال وأذنابه بفضل توجيهات أب روحي كان يقف بحكمته بالمرصاد لكل المؤامرات ويفشلها؛ حتّىٰ ضاق الشر من حكمته ذرعاً.. جعل العراق ينهض، يقاوم، وينتفض، ويطرد الاحتلال ويكاد يقف من جديد علىٰ رجليه.

بنىٰ وأسَّس وعمَّر، ثم عاد وتعثّر مرة أخرىٰ.. ليرسلوا له خفافيش الظلام لتغزو أرضه.. عصابات وحشية جاءت باسم الشريعة لا تعرف إلّا للجريمة طريقاً.. فخربت.. ودنَّست أرضه!

هبَّ جنوبه ثائراً.. حاملاً جراحات أبنائه كالزهور اليانعة حينما تريق أريجها الزاكي فوق تراب الوطن الحبيب ليطيب ويتطهر، بل وتقدم أرواحها هدية لعينيه الغاليتين بعد انطلاق فتوىٰ الجهاد التي أطلقها روح العراق وقلبه النابض بالمحبة لجميع العراقيين بلا استثناء.

انتصر العراق فأعلن التحرير بكنس أعداء الخارج، وها هو بصدد كنس أعداء الداخل قريباً إن شاء الله.

حسن الجوار

استيقظ أحمد كعادته في الصباح، وسلّم علىٰ أبيه وقبَّل يد أُمِّه، فأحمد ذو العشر سنين دأب علىٰ هذا السلوك، فهو يرىٰ أباه يفعل ذلك مع جده وجدته.

جلس ليتناول فطوره معهم، وبعد الفراغ بدأ يقرأ قصة جلبها من مكتبة المدرسة، تتحدث عن حسن الجوار، وكان يوم عطلة.

بعد أن فرغ من قراءة القصة الجميلة، استأذن أباه لكي يرىٰ بعض زملائه الذين اعتاد أن يشاركهم الدرس واللعب في وقت الفراغ.

ما إن فتح باب بيتهم حتّىٰ عاد مسرعاً وهو ينادي: أبي، أبي!

هنا تحرك الأب مسرعاً: ما بك يا أحمد؟

أبي قم وانظر إلىٰ هؤلاء؟

من هم يا بني؟

بعض أولاد الجيران وهم يرمون الحجارة على شجرة جارنا المثمرة!

ألا يعرفون حسن الجوار؟!

نعم يا أحمد، وماذا تعرف عن حسن الجوار؟

أبي، لقد قرأت قبل قليل عن حسن الجوار.

نعم يا بني، ما هو حسن الجوار؟

أبي، على الجار أن يحترم جاره ولا يؤذيه، ويساعده إن احتاج مساعدة، كما أمرنا نبينا محمد ﷺ، وكما أمرنا ديننا بذلك.

أليس هذا هو الحق يا أبي؟

نعم يا بني، بوركت يا ولدي، سأذهب وأتحدث مع آبائهم حتّى لا يؤذوا جارنا، بارك الله فيك يا ولدي.

الفهرست

مقدمة المعهد ١
الإهداء ٣
المقدمة ٤
تأملات فتاة ٧
صحوة ضمير ١٠
زمن الضياع ١٤
أحلام السعادة ١٧
آهات محبوسة ١٨
انكسار قلم ٢٠
ألم الماضي ٢٢
ما هي أمنيتك لهذا العام؟ ٢٥
في طريق التعلم ٢٩
حروف نيرة ٣٢
آهات باكية ٣٦
الرحلة المؤجلة ٣٨

العشق الحقيقي ٤١
إننا غافلون ٤٤
المصير المجهول ٤٥
ابتسامة بريئة في وجه قاتله ٤٧
الماضي الجميل ٥٠
الطفلة الأم.. ذات الأوجاع ٥٢
أنا لست كالأُخريات ٥٨
النفوس الطيبة ٦٠
دعيني أشم رائحة الجنة ٦٥
هكذا حظي ٦٩
بإيمانها هزمتهُ وبعقلها سلكتهُ ٧٠
بوحُ قلم ٧٤
حسن الجوار ٧٧